وارتضاه أسره فقرأ عليه يوماً كتاباً فى الكتاب ومطرنا مطراً كثر عنه الكلاء فقال له الخليفة ممتحناً له وما الكلاء فتردد فى الجواب وتعثر لسانه ثم قال لا أدرى فقال سل عنه، ومن مقام آخر فى مثل حاله قرأ على بعض الخلفاء كتاباً ذكر فيه حاضر طي فصحفه تصحيفاً أضحك منه الحاضرين، ومن قول آخر فى وصف برذون أهداه وقد بعثت به إليك أبيض الظهر والشفتين فقيل له لو قلت أرثم الملظ قال فبياض الظهر ما هو قالوا لا ندرى قال إنما جهلت من الشفتين م جهلت من الظهر ولقد حضرت جماعة من وجوه الكتاب والعمال العلما لجلب الفيء وقتل النفوس فيه وإخراب البلاد والتوفير العائد على السلطا بالخسران المبين وقد دخل عليهم برجل من النخاسين ومعه جارية ردت عليه بسن شاغبة زائدة فقال تبرأت إليهم من الشفا ردوها على بالزيادة فكم فى فم الإنسان من سن فما كان فيهم أحد عرف ذلك حتى أدخل رجل منهم سبابته فى فيه يعد بها عوارضه فسال لعابه وضم رجل فاه وجعل يعدها بلسانه فهل يحسن بمن ائتمنه السلطان على رعيته وأمواله فرضى بحكمه ونظره أن يجهل هذا من نفسه وهل هو فى ذل إلا بمنزلة من جهل عدد أصابعه ولقد جرى فى هذا المجلس كلام فى ذكر عيوب الرقيق فما رأيت أحد منهم يعرف فرق ما بين الوكع والكوع والحنف من الفدع ولا اللمى من اللطع فلما أن رأيت هذا الشأن كل يوم إلى نقصان وخشيت أن يذهب رسمه ويعفو أثره جعلت له حظاً من غايتى وجزءاً من تأليفى فعملت لمغفل التأديب كتباً خفافاً فى المعرفة وفى تقويم اللسان واليد يشتمل كل كتاب منها على فن وأعفيته من التطويل (ص٦) والتثقيل لأنشطه لتحفظه ودراسته إن فاءت به همته وأقيد عليه بها ما أضل من المعرفة واستظهر له بإعداد الآلة لزمان الأدلة أو لقضاء الوطر عند تبين فضل النظر وألحقه مع كيلال الحد وييس الطينة بالمرهفين وأدخله وهو الكودن فى مضمار العتاق وليست كتبنا هذه لمن لم يتعلق من الإنسانية إلا بالجسم ومن الكتابة إلا بالاسم ولم يتقدم من الأدوات إلا بالقلم والدواة ولكنها لمن شدى شيئاً فعرف الصدر والمصدر والحال والظرف وشيئاً من التعاريف والأبنية وانقلاب الياء عن الواو والألف عن الياء وأشباه ذلك ولابد له مع كتبنا هذه من النظر فى الأشكال لمساحة الأرضين حتى يعرف المثلث القائم الزواية والمثلث الحاد والمثلث المنفرج ومساقط الأحجار والمربعات المختلفات والقسى والمدورات والعامودين ويمتحن معرفته بالعمل فى الأرضين لا فى الدفاتر فإن المخبر ليس كالمعاين، وكانت العجم تقول من لم يكن عالماً بإجراء المياه وحفر فرض المشارب وردم ما لمهاوى ومجارى الأيام فى الزيادة والنقص ودوران الشمس